4

مع غريغوري بيتسن في بالي

بإنهائها هذين الكتابين، «الغريزة والمزاجية» و«التعاون والتنافس عند الشعوب البدائية»، أصبحت ميد جاهزة للعودة إلى ميدان العمل. في ربيع عام 1935، قدم غريغوري بيتسن إلى نيويورك، وخطط مع ميد للقيام سوياً بعمل ميداني في بالي في السنة التالية. ومن المعلوم أن إجراءات الحصول على إذن غياب، وعلى النقود التي تدعم العمل كانت مشكلة معقدة لشخص واحد فكيف هي الحال بالنسبة لشخصين من بلدين مختلفين يحاولان دمج خطط بحثيهما معاً. لقد كان ذلك صعباً جداً. كما كان على ميد الحصول على الطلاق من فورتيون، إلا أن كل شيء أصبح وعلى ما يرام في النهاية.

obeikandl.com

كان غريغوري بيتسن مع ميد يشكلان فريق بحث خلاّق. التقط بيتسن أكثر من 25 ألف صورة في بالي ترافقها الملاحظات التي دوّنتها ميد.

ذهبت ميد إلى هارليم التي تمثل قلب الثقافة الإفريقية الأمريكية لمدينة نيويورك لتحصل على نصيحة أحد الأصدقاء، فقد كانت معتادة أن تلجأ إليه في أوقات الأزمات. أخبرها الصديق أن بيتسن رجل جيد وأن عليها الاعتناء به. أخذت بنصيحته وغادرت نيويورك دون إخبار والديها أنها تنوي الزواج قريباً للمرة الثالثة. غادرت نيويورك في أوائل عام 1936 حيث قابلت بيتسن في جافا ليتزوجا بعد ذلك في سنغافورة في 13 مارس لعام 1936. وذهبا إلى بالي لتكون هذه الرحلة أسعد رحلاتها، وتكون تجاربها وخبراتها الميدانية الأكثر تحقيقاً للرضى عن نفسها. وقد وجدت في غريغوري بيتسن أخيراً الشريك العقلي والعاطفي المثالي لما أرادت القيام به من أعمال. فقد كان يتمتع بخلفية علمية افتقدتها هي، كما كان مصوراً موهوباً وكاتباً منطقياً. ثم أرسلت لوالديها رسالة تخبرهم فيها بالأخبار المفاجئة عن زواجها، وأنها ستشترك مع بيتسن في كتابة كتبها وربما إنجاب طفلها. أرادت ميد هذه المرة أن تدرس كيفية تطور الأطفال ليصبحوا أعضاءً كباراً في مجتمع معين. أرادت أن تعرف ما الذي يجعلهم على سبيل المثال باليين أو صينيين أو أمريكيين. أحبت أن

تدرس أسلوب تنشئة الأطفال الذي تشكل شخصيتهم كالبالغين. أما من الناحية الرسمية فكان مشروعهما يسمّى شيئاً آخر، فقد تم تمويلهما لدراسة الاستيعاب الثقافي لمرض فصام الشخصية. وقد استوحيت هذه الفكرة جزئياً من رث بندكت التي أرادت من علماء الإنسان أن يجمعوا معلومات عن هذا المرض العقلي عند ثقافات أخرى. يتميز مرض فصام الشخصية بانسحاب من الواقع، تصاحبه أوهام جميلة وهلوسات، وكان هذا المرض يبدو في تزايد في الولايات المتحدة. أظهر سكان بالي بعضاً من هذه المميزات فهم غالباً يدخلون في نوع من الغشوة أو الغيبوبة، كما أنهم يميلون للانسحاب. ولكن هذا النوع من السلوك كان يعتبر عادياً. كان هدف الدراسة هو معرفة ما إذا كان سبب هذا السلوك هو ممارسات معينة متبعة في تربية الأطفال؟ وهل هذا يعني أن سبب فصام الشخصية في الولايات المتحدة أو على الأقل مسبباً لها هو ممارسات معينة في تربية الأطفال؟ وهذا ما نويا أن يكتشفاه.

أراد فرانز بواز منهما في الوقت نفسه دراسة الإيماءات التي درسها هو نفسه عند شعب الكواكيوتل، وهنود آخرين في الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة وكندا. في النهاية، جعلا من هذه الإيماءات ولغة الجسد جزءاً هاماً من دراستهما لسكان بالي.

كان لدى ميد إحساسٌ أن ثقافة بالي ستكون مختلفة

obeikandl.com

عن كل الثقافات التي درستها من قبل، وأنها ستتمكن من توثيق نوع ثقافي مختلف. أهم الأهداف التي تشارك فيها بيتسن وميد كانت نيتهما في ابتكار طريقة جديدة للبحث في علم الإنسان. فميد رائدة في تسجيل كميات هائلة من المعلومات باليد، لدرجة أنها كانت تستطيع الكتابة حتى دون النظر إلى الصفحة، ولكن بيتسن أراد دليلاً علمياً أكثر وضوحاً. لذلك أراد استخدام التصوير الفوتوغرافي المتحرك والساكن، وذلك لتوفير سجلات مكتوبة ومصوّرة عن التفاعلات الإنسانية التي سيدرسانها. علاوةً على ذلك فإن الصور ستظل أرشيفاً أزلياً يستطيعان هما وغيرهما أن يدرسوه مراراً وتكراراً. بعد غينيا الجديدة كانت بالي رائعة للعمل الميداني. كان تعداد أفراد المجموعات التي قاما بدراستها في غينيا الجديدة لا يزيد على المئات أو على الأكثر عدة آلاف. على الرغم من هيمنة أندونيسيا المسلمة، كان سكان بالي في معظمهم من الهندوس، وكانت ثقافتهم معقدة بشكل كبير. وجد بيتسن وميد نفسيهما محاطين منذ الصباح الباكر حتى الوقت المتأخر من الليل بمراسم وشعائر وموسيقى الناي والصنج والطبول والأجراس القرصية. كما كانت عندهم مراسم تقويمية وعروض مسرحية وقرابين يقدمونها للمعبد، ومسرحيات خيال الظل، ورقصات النشوة، وصراع الديكة. وسط كل هذا لم يكونا ليشتكيا أبداً من أنه «لا شيء كان يحصل» كما كان يحدث معهم غالباً في غينيا الجديدة. كما أنهما لم يشعرا كذلك بالعزلة، فقد

وجدا نفسيهما وسط مجتمع ممتع من الفنانين والراقصين الوافدين الذين جذبهم جمالُ باليٍ، والناس والثقافة. وجد لهما الترسبايز وهو رسام من ألمانيا منزلاً صغيراً، وساعدهما على تأجير خدم. كما تعرفا على جين بيلو، صديق من نيويورك وكولين مكفيي اللذان كانا يدرسان الموسيقى والرقص في بالي. وقد وعدا ميد وبيتسن أن يخبراهما بمواعيد المراسم التي سوف تحدث. كان الكثير من سكان بالي متعلمين جيداً ويتكلمون لغات كثيرة، وبهذا كانت المساعدة ممكنة إذا احتاجا لها. ثم وظفا سكرتيراً لهما يدعى آي ميد كيلر الذي يتحدث خمس لغات بما فيها الإنجليزية، كما أنه يستطيع التحدث والكتابة باللغة المحلية. ثم أصبح جزءاً لا يتجزأ من فريق البحث، فقد كان يسجل ما يحدث في اللغة المحلية. بينما تكتب ميد بالإنجليزية ويلتقط بيتسن صوراً ليقوموا لاحقاً بتنسيق هذه الصور الثلاث لتسجيل الأحداث حسب الوقت فيدون كل منهم ما حدث ومتى حدث.

كانت لجزيرة بالي مزايا أخرى، فالجزيرة جميلة والترحال فيها سهلٌ وميسرٌ كذلك، بحيث تمكنت ميد من المشي في معظم الطرق دون الخوف من أن تلوي كاحلها الضعيف. كان الخدم المنزليين متوفرين بكثرة، وكانوا يعدون وجبات شهية من الرز مع اللحم والسمك والتوابل الحارة، حيث وجدت ميد في بالي متعة في الطعام بينما كانت في رحلاتها الميدانية الأخرى، تفقد عادة ما بين 25 إلى 40 باوناً حيث كانت تأكل ببساطة لتعيش. عاش كل

obeikandl.com

من ميد وبيتسن لسنتين في رفاهية قضوها في عملهم، وهذا كان أفضل شيء بالنسبة لهما.

اختار الزوجان أن يقيما في قرية جبلية صغيرة في باجوينغ جيد بعيداً عن المراكز المدنية الأكثر تعقيداً. فقد اعتقدا أن فهم الثقافة الأولية أسهل من المعقدة، لذلك قدما إلى مكان بدائي نسبياً. كانت باجوينغ جيد بعيدة عن الطريق العام، بعدد سكان قدره 500 نسمة ولم تكن الطرق مرصوفة ولم يكن عندهم كهرباء أو أنابيب صرف صحي.

بعد أن استقرا لفترة وجيزة، جاءت والدة بيتسن الأرملة من إنجلترا لزيارة مدتها ستة أسابيع حيث أرادت أن تلتقي بزوجة ابنها الجديدة كما أرادت ميد من جهتها أن تترك أثراً طيباً عندها. وفي فترة إقامة الأم، استأجرا بيتاً بأبواب مذهبة، وأحضرا مجموعة أوبرالية لتقدم عروضاً لها. حتى في هذه القرية الصغيرة كان الزخم الثقافي طاغياً. كان الباليون بشوشين لكنهم متحفظون، وكان من الصعب على ميد أن تقيم صلة بهم، حيرت هذه المشكلة ميد فهي لم تشهد مثلها من قبل.

بدى سكان القرية حذرين وخجولين وانعزاليين بل حتى كئيبين. وتجسّد إحباطها عندما انهارت سيطرتها على نفسها، وانفجرت في البكاء بدموع غاضبة عندما عضها كلب عائلة. ولكنها استطاعت أن تحول هذا الموقف إلى فرصة استغلتها في بحثها؛ وذلك بملاحظة كيفية ردة فعل

مكث كل من ميد وبتسن إلى جوار فنانين من بالي. وكانا يشاهدان أعمال الفنانين في كل مراحلها ويسجلا الأحلام التي يصورها هؤلاء الفنانون كما جمعا مجموعة كبيرة من اللوحات مثل هذه اللوحة.

الباليين على الغضب. بعد عدة سنوات، كتبت في موضوع حول كتاب عن النساء في علم الإنسان تقول فيه:

«توضح الصور المأخوذة لي في ميدان العمل المدى الذي كنت قد وصلت إليه في التأقلم مع أسلوب الناس الذين كنت أعمل بينهم. في صوري المأخوذة في بالي أبدو غير اجتماعية جالسة بين الناس الذين يبدون منفصلين عن بعضهم بعضاً، وفي ساموا أظهر أنيقة أجلس ثم أقف لأظهر تقاليد الساموية ودرجتي الاجتماعية. بينما في مانوس، فأنا متوترة ومتيقظة ونصف مختنقة من الطفل المتعلق حول رقبتي. بين الأرابيش، أصبحت ناعمة ومطيعة مثل الأرابيش أنفسهم».

عزت ميد أسباب ميل سكان بالي للانعزال عن التواصل الاجتماعي إلى الممارسات المتبعة في تربية الأطفال. فالأم في بالي قد تضايق طفلها ثم تبعده عنها بشكل فظ تاركة إياه محبطاً ومتضايقاً، وفي النهاية يتعلم الطفل أن ينسحب كوسيلة لحماية نفسه. رأى النقاد فيما بعد أن ميد لم تفهم بوضوح أسباب الخجل والانعزال اللذين لاحظتهما، واللذين يفسران بشكل أفضل على أساس أن القرويون في باجونيغ جيد كانوا في أسفل الطبقات الاجتماعية في بالي، وكانوا يشعرون بالضيق والحرج مع أشخاص مثل ميد وبيتسن، اللذين بديا أجانب مثل الهولنديين الذين كانوا لفترة طويلة حكاماً استبداديين في بالي.

اشترى بيتسن 75 لفافة من أفلام ليكاً من أجل مشروعهما على مدى سنتين، ولكن بعد ظهيرة يوم وفي

هذه الصورة المقنّعة والمراسمية هي من مسرح توبينج.

45 دقيقة فقط، استخدم ثلاث لفافات، بينما كان يتابع أماً مع أطفالها. فلاحظ عالما الإنسان أنه بهذا المعدل ستستهلك مؤونتهما من الأفلام في بضعة أسابيع، فهل عليهما تغيير خطة البحث المبنية أساساً على الصور الفوتوغرافية؟ أم يجب أن يلزما نفسيهما بمشروع مصور أضخم مما تخيلاه في بادئ الأمر؟

ثم اختارا الحل الأخير. ولحل مشكلة النقود، اشترى بيتسن فيلماً كاملاً وقام بتقطيعه بنفسه. كما حصلا على آلة تحميض ليتمكنا من تظهير الصور بأنفسهما. وجدا أنه بدلاً من التركيز على تفاصيل خاصة من السلوك، فإن التصوير العشوائي السريع في معظمه يعطي نتائج أفضل. وهكذا بدلاً من التقاط 2000 صورة كما كان مخططاً في الأصل التقط بيتسن 25000 صورة في بالي. وكان حجم الملاحظات التي دونتها ميد مع آي ميد كلير في تزايد متناسب مع كثرة الصور. عملا بلا هوادة، يلاحظان ويصوران في النهار، ويحمضان الأفلام ويدونان الملاحظات حتى آخر الليل. وعندما اقترب موعد نهاية عملهم في بالي وشعر ميد وبيتسن أن عليهما أن يسرعا، صارا يحمضان أكثر من 1600 صورة في مساء واحد. بعد عدة عقود مرت على ذلك، لازال آي ميد كيلر يتذكر هذه الطاقة المذهلة، وساعات العمل الطويلة. فقد ذكر في مقابلة عام 1989 أن ميد وبيتسن قد أعطياه الإلهام لحياة من العمل الجاد والشاق، فبعد أن غادرا بالي، أنشأ كيلر مدرسة إعدادية باللغة الإنجليزية، والتي تطورت لاحقاً لتصبح جامعة. كافأت ميد نفسها على عملها الشاق بكتابة الرسائل لأصدقائها وزملائها. كعادتها دائماً، كانت تسدي النصائح، وكانت أفضل نصائحها بخصوص ميدان العمل تمررها بشكل عادي في هذه الرسائل. كتبت من بالي إلى عالمة إنسان صديقة لها في طريقها إلى جواتيمالا تحثها على ارتداء اللباس المحلي في أي بقعة بعيدة تذهب إليها

لمساعدتها على أن تتأقلم وتتناسب مع المجتمع، وعلى إدراك أفضل لأسلوبهم في حمل الأطفال الرضع، ولفهم السلوك البسيط والمزاجي. كما حذرتها من أن «ملاحظة الشعيرة وعدم تدوينها هو مضيعة حقيقية للوقت».

بعد قضاء سنتين في بالي، أرادت ميد مع بيتسن تجريب أساليبهما الجديدة في البحث في ثقافة أخرى. أرادا أفلاماً وسجلات فوتوغرافية لمكان آخر؛ لمقارنته مع أفلامهم في بالي. فاختارا الذهاب إلى الإياتمول في غينيا الجديدة حيث عمل بيتسن من قبل. كان ذلك في سنة 1938، وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب. بدءا يشعران أن ليس أمامهما متسع من الوقت، ولكنهما في الوقت نفسه متلهفان للحصول على معلومات مقارنة، لذلك كانا مستعدين للذهاب إلى أي مكان. بينما كانا في طريقهما من بالي إلى الإياتمول، ذاهبين إلى أعالي نهر السيبيك في قارب تجاري صيني صغير، سمعا الأخبار المشؤومة عن محاولة رئيس الوزراء البريطاني نيفل تشامبرلين إحلال السلام في أوروبا بالاعتراف باحتلال أدولف هتلر لقسم من تشيكوسلوفاكيا. كتبت أم بيتسن له رسالة من إنجلترا تخبره عن أدولف هتلر أنه رجل مجنون، وغير أخلاقي، وتمنت لو يتمكن ابنها من البقاء مع زوجته في غينيا الجديدة غير مدركة بالطبع أن النزاع في الحرب العالمية الثانية سيدور أخيراً على جزر المحيط الهادئ.

أقام القرويون في بالي مراسم وداع لعالمي الإنسان حيث قاموا بإعطاء ميد وبيتسن لوحة رسموهما فيها. يظهر

obeikandl.com

في وسط اللوحة قارب صغير جداً من بعيد وعلى ظهره ميد التي تظهر صغيرة جداً وهي تستدير لتنظر باتجاه القرويين المنهمكين في حزن مسرحي على الشاطئ، بينما يتصاعد دخان من بركان في بالي ليقذف في الجو كلمة «وداعاً وحظاً سعيداً». ويظهر بيتسن إلى جانب ميد طويلاً جداً، وهو يلوح بسرور لسكان غينيا الجديدة، الذين يظهرون في الطرف السفلي من مقدمة اللوحة وهم يلوحون برماحهم وأقواسهم وسهامهم مرتدين مآزرهم ليغطوا عوراتهم فقط، بينما يقذف البركان بدخانه كلمة «مرحباً». عند وصولهما إلى غينيا الجديدة، أقاما مخيماً في تامبونان، وهي قرية إياتمولية كبيرة. ثم شرعا في العمل بشكل محموم على الرغم من تعرض بيتسن للمرض لبعض الوقت، إلا أن الإياتموليين كانوا مشغولين بصيد التماسيح، وغير مكترثين كثيراً بالمراسم التي أراد بيتسن تصويرها. قام الباحثان بالتقاط الصور وتسجيل الأفلام عن طريقة التفاعل بين الأم وطفلها في إياتمول لمقارنتها بعد ذلك مع ما سجلاه في بالي.

تسبب الوصول غير المتوقع لسبعة من زوارق الأوروبيين إلى مخيمهم في إحباط آخر في تامبونان لميد وبيتسن. ففي كل مرة كان هؤلاء يظهرون فيها، كان على ميد وبيتسن ترك كل شيء يفعلاه للعب دور المضيف، لأن هذا ما يتطلبه الذوق والحصافة المتوقعة. وهذه الزيارات هي التي قصدتها ميد عندما كتبت لاحقاً تتحدث عمّا أسمته «بالانقلاب الجسدي» المفاجئ حيث كان

عليها أن تنتقل فجأة من جو ومحتوى ثقافي ولغوي إلى جو آخر. فقد تكون جالسة في بيت مرتكز على ركائز فوق نهر محاطة بالرجال والنساء والأطفال الإياتموليين السود البشرة وشبه العراة تتحدث لغتهم، مما تطلب فيها تركيزاً عميقاً لتتحدث عن اهتماماتهم؛ مثل كيفية توزيع لحم التمساح بين السكان، وفجأة يظهر رجل أبيض من بعيد عند ضفة النهر متوقعاً منها الانتباه وحسن الضيافة.

كان سكان بالي محبطين للغاية ورسميين في العلاقات فيما بينهم، لذلك فإن ميد وجدت متعة لأن تكون بين الإياتموليين المنفتحين والمشاكسين. كانوا يصرخون على بعضهم طوال اليوم بكلمات نابية، ويجدون متعة بالغة عندما تنتابهم نوبات جنونية ويبرزون غضبهم. كانت البيوت والملابس والأدوات في الإياتمول بسيطة جداً، ولكن ثقافتهم كانت معقّدة في نواحٍ أخرى كما اعتقدت ميد. وصفتهم في رسالة كتبتها لعائلتها وأصدقائها بأنهم «أناس فرحون وغير مسؤولين ونشيطون وهم دائماً إما يضحكون وإما يصرخون بغضب، فهم يتناوبون على هذين النوعين من السلوك، ويبدو أنهما يعطيانهم الدرجة نفسها من الرضا. عندما يفقد أي شخص أعصابه فإن المتفرجين يقفون حوله مبتسمين ابتسامة عريضة من الأذن حتى الأذن؛ لأن هذا المشهد يشعرهم ويؤكد لهم أن هذا هو العالم الذي يستطيع فيه الناس أن يفقدوا أعصابهم «بشدة». كانوا يستمتعون بالغضب أكثر من أي شعب رأيته».

بعد أن قضيا ثمانية أشهر في غينيا الجديدة، عادا إلى

نيويورك حيث اكتشفت ميد أنها حامل. وعلى الفور أخذت إجازة من المتحف احتياطاً لأنها أرادت طفلاً منذ فترة طويلة، وقد تعرضت لعدة إجهاضات. في أغسطس من عام 1939، غزت ألمانيا بولندة، وفي الشهر التالي أعلنت بريطانيا العظمى وفرنسا الحرب على ألمانيا. وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية في أوربا. غادر بيتسن فوراً إلى إنجلترا ليقدم خدماته إلى بلده بينما مكثت ميدني نيويورك لتضع مولودتها ماري كاثرين بيتسن في الثامن من ديسمبر لعام 1939. رتبت ميد أمورها بحيث يكون الطبيب الأخصائي بنجامين سبوك طبيب طفلتها، وهو قريباً سيصبح الأخصائي الأكثر شهرة في أمريكا في رعاية الأطفال. كانت هي نفسها كذلك أخصائية مشهورة في تطور نمو الطفل لدرجة أنه قد طلب من الممرضات أن يتركوها تفعل ما تشاء ، وما أرادته ميد كان تصوير عملية الولادة على فيلم حتى تتمكن من دراسته فيما بعد. أصرت كذلك على أن يسمح لها الأطباء بإرضاع طفلتها كلما جاعت خلافاً لجدول الرضاعة الصارم الذي يقضي بإرضاع الطفل كل أربع ساعات، والذي كان وقتها يعتبر صحيحاً عند معظم الأطباء.

في إنجلترا وجد بيتسن نفسه في نهاية غير واضحة المعالم حيث إنه لم يتوصل إلى طريقة واضحة يسهم فيها في جهود الحرب. عندما عجز عن معرفة ما يفعل، طلب من أستاذ عجوز أن يخبره بما ينبغي عليه فعله. أخبره الأستاذ أن عليه أن يرجع إلى الولايات المتحدة لينهي العمل الذي بدأه

في بالي. وبالفعل، هذا ما قام به بيتسن بالضبط حيث عاد من إنجلترا عندما أصبح عمر ماري كاثري ستة أسابيع.

«الشخصية البالينية: تحليل مصور» هذا هو عنوان الكتاب الذي نشرته ميد مع بيتسن عام 1942 والذي يتكون بشكل رئيسي من 759 صورة مع تحليلاتها، كان هذا الكتاب بالكامل عملاً مشتركاً؛ حيث كتب بيتسن التوضيحات والتفسيرات للصور المبنية على دراستهما المشتركة، بينما كتبت ميد مقدمة وخاتمة الكتاب. يعد بعض علماء الإنسان «الشخصية البالينية» أنه أفضل أعمال ميد ويدللون على قولهم أن التركيبة المنطقية التي ترافقها الدقة النظرية لهذا الكتاب لا توجد في كتبها الأخرى. كان للكتاب نقادٌ أيضاً، ففي الثمانينيات من القرن الماضي، قام عالما نفس أحدهما أمريكي والآخر من بالي بدراسة جديدة للشخصية البالينية حتى يتحققوا مما كتبه بيتسن وميد. استنتج هذان العالمان النفسانيان أن السبات أو النعاس الذي لاحظاه ميد وبيتسن عند الأطفال كان نتيجة مرض لم يستطيعا تمييزه، وهو الابتلاء المزمن بالدودة الطفيلية المدورة الذي يسبب سوء التغذية، وغالباً ما يسبب حدة الطبع والسبات. رفضا تشخيص ميد وبيتسن للشخصية البالينية العامة على أنها مصابة بفصام الشخصية وأن الطرق المتبعة في تنشئة الأطفال تميل إلى التسبب بالسبات وفصام الشخصية. في الثمانينيات من القرن العشرين، تبين أن مرض فصام الشخصية يعود إلى عوامل بيولوجية وجينية بشكل عام على الرغم من إسهام عوامل

obeikandl.com

بيئية في ذلك وخاصة التوتر. إلا أنه حتى هؤلاء العلماء أشادوا بقيمة الكتاب كعمل لعلم الأعراق البشرية، وكتوثيق ووصف لأسلوب الحياة في بالي. كان واضحاً أن الكتاب نتاج تدريب بيتسن الفلسفي والعلمي منسجماً مع طاقة ميد وخبرتها في الملاحظة، كما كان نتاج أكثر الفترات في حياة ميد زخماً عاطفياً حيث عملت في مكان جميل مع الرجل الذي عشقته. وقد كتبت لاحقاً في سيرتها الذاتية تواقة لذكرياتها تقول: «إنه لشيء رائع أن يتوفر نموذج كهذا لما يجب أن يكون عليه شكل ميدان العمل في علم الإنسان، حتى ولو لمرة واحدة في الحياة». تحدثت عن هذه الفترة أنها «الوقت الذي يكثف فيه العمر وينضغط بشكل كبير في سنوات قصيرة».

استخدمت الصور التي التقطها بيتسن والكميات الكبيرة من الأفلام والملاحظات التي دونتها ميد لإنتاج أعمال رائدة أخرى. في أواخر الأربعينيات، طلبت ميد من مصور وثائقي شاب يدعى فرانسيس كوك ماكجريجور أن يحلل حوالي أربعة آلاف صورة، كان بيتسن قد التقطها في بالي. بعد دراسة هذه الصور لعدة أيام، لاحظ ماكجريجور أن لدى سكان بالي حركات يد ووضعيات جسدية مميزة. أعجبت هذه الاكتشافات ميد فكتبت مع ماكجريجور كتاباً حول هذا الموضوع أسمته «التطور والثقافة» أوضحت فيه أنه عندما ينمو الأطفال فإنهم يتعلمون لغة معينة، بالإضافة إلى ذلك فهم يتعلمون طريقة خاصة في تحريك أجسادهم. أشاد عالم إنسان

فرنسي هو مارسيل موس قبيل ذلك بقليل إلى أن أساليب السباحة تختلف من أمة إلى أمة. أنتجت ميد مع بيتسن عدة أفلام قصيرة بالأبيض والأسود للأغراض التعليمية، وكانت المواضيع تدور حول «حمام الأطفال في ثلاث ثقافات» و«السنوات الأولى كارباً» أي دراسة الطفولة في بالي، و«التنافس في الطفولة في بالي وغينيا الجديدة» و«الأيام الأولى في حياة طفل في غينيا الجديدة» و«النشوة والرقص في بالي». كل هذه المواضيع كانت ممتعة وممتازة لأنها توضح كيف يمكن استخدام فيلم ليس فقط كوسيلة إيضاح بل كأداة بحث. يعد «حمام الأطفال في ثلاث ثقافات» مثالاً تقليدياً في علم الإنسان. ففي تسع دقائق فقط، تظهر في الفيلم أمٌّ أمريكية وأم إياتمولية وأخرى بالينية في فترة الثلاثينيات أو الأربعينات من القرن العشرين، وهن يغسلن أطفالهن. العمل هو نفسه ولكن الإيماءات وتعابير الوجه مختلفة عند الأمهات الثلاث فالأم الإياتمولية تبدو عادية بينما تبدو الأم الأمريكية مهتمة أن تفعل كل شيء بالصورة الصحيحة تماماً، بينما الأم البالينية تبدو غالباً شاردة وغير مبالية. أرادت ميد مع بيتسن أن يوضحا أنه؛ حتى موقف الأم تجاه طفلها وردّة فعل الطفل هما نتاج تشكيل نمط الثقافة. حركات الجسد غير الشفهية هي في حد ذاتها نظام اتصال كامل.

قامت ميد مع غريغوري بيتسن بأكثر أعمالها الميدانية نجاحاً وإرضاءً لذاتها، كما أنهما أنجبا سوياً الطفلة التي طالما تمنتها ميد ولكن الزواج نفسه لن يستمر.

ميد (الخامسة من اليسار) مع أعضاء آخرين من اللجنة الوطنية الاستشارية لوكالة الأعمال الفيدرالية لرعاية الطفل في اجتماع في واشنطن في 15 نوفمبر عام 1944. أحست ميد أن على علماء الإنسان المساعدة، وتحمّل المسؤولية في الجهود الإنسانية، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية، وعليهم كذلك أن يناضلوا من أجل عالم يسوده السلام.